# تطوّر الدّرس البلاغيّ العربيّ

# The development of the Arabic rhetorical lesson

أ. هاجر بوعكاز

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة

**ملخص**

يهدف هذا المقال إلى إبراز مراحل تطور الدرس البلاغي العربي بداية من القرن الرابع للهجري، مخصصين الحديث عن علماء أربعة، وهم (عبد القاهر الجرجاني، وابن سنان الخفاجي، وأبو يعقوب السكاكي، والخطيب القزويني)، فقد عرفت مسائل البلاغة مع هؤلاء البلاغيين جدة وطرافة في ما قدموه، ونخص بالذكر نظرية النظم الجرجانية، قضية الأصوات عند الخفاجي التي ربطها بمسائل بلاغية من قبل الفصاحة والبلاغة وهذا الذي لم يتطرق إليه من قبل، اما السكاكي فهذا الذي جاء بالتقنين والتنظيم في جميع مسائل البلاغة، ونهج نهجا جديدا مغايرا للمألوف والسائد، وفي الأخير الخطيب القزويني الذي قدم شروحات وافية ومنظمة لكتاب السكاكي.

**الكلمات المفتاحية**:البلاغة العربية، التطور البلاغي، الدرس البلاغي، علماء البلاغة

**Abstract**

This article aims to highlight the stages of the development of the Arabic rhetorical lesson, beginning in the fourth century of the Hijra, and we have devoted the discussion to four scholars, namely Abd al-Qaher al-Jarjani, Ibn Sinan al-Khafaji, Abu Yaqoub al-Sakaky, and al-Khatib al-Qazwini.The issues of rhetoric with these rhetoricians have known novelty and witty in what they presented, in particular the systems theory of Jarjani, the issue of voices that he linked to rhetorical issues such as eloquence and rhetoric, which has not been addressed before.As for al-Sakaki ,he is the one who brought codification and regulation to all rhetorical issues. He has also followed a new approach different from the usual and prevailing, and in the end, Khatib al-Qazwini,who provided comprehensive and structured explanations of Sakaki’s book.

**Key words**: Arabic rhetoric, rhetoric development, rhetorical lesson, Rhetoricians

**مقدمة**

إن الحديث عن البلاغة العربية يعني الخضوع لمنطق السرد والتتبع الزمني الطويل لحيثيات النشأة والتطور، فكما أنها مباحث ومسائل تتمحور فيها الدراسة الجمالية والفنية المطلقة، فهي أيضا حياة لعلم نما وتطور وتغيرت حدوده ومفاهيمه واصطلاحاته لأكثر من ستة قرون متتالية.

ومن نافلة القول حقيق علينا أن نقول إن هذا العلم قد شب وترعرع في أهم مراحل من تاريخ الحضارة الإسلامية، فمع بزوغ فجر الدولة العباسية سنة (132هـ) وبفترة من هذا التأريخ وبالضبط سنة (188هـ) يصادفنا كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة والذي يكشف عن بداية التأليف البلاغي العربي، ثم ما نلبث أن يطالعنا الجاحظ في منتصف القرن الثالث بكتاب عد بداية التأليف الحقيقي للدرس البلاغي هو كتاب البيان والتبيين، وتوالت المؤلفات والمصنفات تظهر وتتعدد ليشهد معها البحث البلاغي التطور والتجديد في مسائله، أين نجد معالم هذه الجدة ظاهرة في جلاء في القرن الخامس مع عبد القاهر الجرجاني في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة،بل إن حركة التجديد بقت مستمرة حتى القرن السابع وهذا ما وجدناه في مؤلفات ابن سنان الخفاجي سر الفصاحة، ومفتاح العلوم للسكاكي، وكتاب تلخيص المفتاح للقزويني.

فما نواحي التجديد التي عرفتها البلاغة العربية في مؤلفاتهم؟ وكيف كان إسهامهم في خدمة الدرس البلاغي ؟

التجديد مصطلح جاء في المعاجم العربية القديمة ليدل على كل ما هو جديد «الجدة نقيض البلي، يقال شيئ جديد، والجدة مصدر الجديد، واجد ثوبا واستجده، وثياب جدد مثل سرير وسرر، وتجدد الشيء: صار جديدا، وأجده واستجده أي صيره جديدا»[1]. فالتجديد فعل ارتبط فعله بالإنسان فهو الفاعل لهذا الفعل.

والتجديد يتطلب شيئا موجودا يضاف إليه أو البناء عليه «إن التجديد يقتضي أولا وجود بناء قديم يجري عليه التجدد والتطور»[2].

ونحن نحاول في هذه المداخلة أن نسلط الضوء على ظاهرة مهمة في تاريخ التأليف البلاغي العربي، وهي حركة التجديد والتطوير في مسائل ومباحث البلاغة التي نبعت من قريحة وعقلية عربية، تريد خدمة العربية اولا وإثبات شخصيتها في مضمار المعرفة الإنسانية ثانيا، وقد اقتصرت على علماء جاؤا منذ القرن الخامس وبعده وهم: عبد القاهر الجرجاني، وابن سنان الخفاجي، وأبو يعقوب السكاكي، والخطيب القزويني.

**1_ عبد القاهر الجرجاني (400هـ. 471هـ)**

جاء عبد القاهر الجرجاني بآراء قيمة في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة تعتبر زبد البحث البلاغي الذي مكثت فوائده إلى يوم الناس هذا «وأول من أسس من هذا العلم قواعده، وأوضح براهينه وأظهر فوائده، ورتب أفانينه، الشيخ العالم النحرير علم المحققين عبد القاهر الجرجاني، فلقد فك قيد الغرائب بالتقييد، وهد من سور المشكلات بالتسوير المشيد، وفتح أزهاره من أكمامها، وفتق أزراره بعد استغلاقها واستبهامها»[3]. فمكانة الجرجاني في تاريخ التأليف البلاغي مشهود لها من القرون الأولى، فمواقفه تعددت في جميع مباحث البلاغة وكانت تصدر من شخصية علمية لها صدى لا نخطئ إن قلنا عنه زمرة من زمر التفرد الإنساني العلمي والإبداعي، لذلك عده بعض الدارسين أول مرحلة تجديدية للبلاغة العربية «ويمثل عبد القاهر الجرجاني (471) بما دبجه في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز المرحلة الأولى من هذه المراحل التجديدية».[4] فما هي المسائل البلاغية التي فتح عبد القاهر الجرجاني مغالقها؟ وماذا قال وكيف قال ليكون شيخ البلاغة العربية؟

- **قضية اللفظ والمعنى عند الجرجاني:**

إن قضية اللفظ والمعنى من المسائل البلاغية والنقدية التي أسالت الكثير من الأقاويل في التراث العربي وكانت قضية الجميع «إن أدباء اللغة يختلفون في مراعاة اللفظ والمعنى في عملهم الفني، فمن الناس من يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غايته ووكده (...) ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالي حيث وقع هجنة اللفظ وقبحه وخشونته»[5] فالجاحظ لا يرى للمعنى شأن إلا بقيمة اللفظ الموضح له والمعبر عنه فهو يقول «المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي، والقروي، و[المدني]، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ وسهولة المخرج و [كثرة الماء] وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج وجنس من التصوير»[6]، ونجد من هم موالون للمعنى ولا يهمهم سوى إخراج المعنى من كفن اللغة وإن كانت الألفاظ بسيطة ومعقدة، وبين هؤلاء وهؤلاء تمركز رأي الجرجاني إذ أفرد لنفسه منهجا وسطا وصل به إلى وضع نظرية في البلاغة العربية لها من الأسس والمبادئ ما جعلته إمام العربية وشيخها اسمها نظرية النظم.

ففي البداية اتهم الرجل أنه من أنصار المعنى في بعض أقاويله منها حين قال «واعلم أن الذي هو آفة هؤلاء الذين لهجوا بالأباطيل في أمر اللفظ أنهم قوم قد أسلموا أنفسهم إلى التخيل، وألقوا مقادتهم إلى الأوهام حتى عدلت بهم عن الصواب كل معدل ودخلت بهم من فحش الغلط كل مدخل، وتعسفت بهم في كل مجهل وجعلتهم يرتكبون في نصرة رأيهم الفاسد القول بكل محال»[7]. والحق ان الجرجاني هنا

يدم أولئك الذين زاغت قريحتهم إلى قطب لغوي واحد وهو اللفظ، وهذا نراه مبدأ حكيم لا تعصب فيه، ولا غلو ولا تطرف، إذ القول ينم على أن الجرجاني لم يمل إلى قطب المعنى، فقط أعلن تنغصه لفئة آثرت أحدي وجهي اللغة، ونجد في قول آخر ما يبرر هذا الموقف «إذ الألفاظ خدم للمعاني والمصرفة في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستها، المستحقة طاعتها، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته وأحاله عن طبيعته وذلك مظنة الاستكراه، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين»[8]. وهنا إقرار أن الجرجاني يناصر المعنى ويبين شرفه للذين نصروا اللفظ على المعنى، وإنما كانت الألفاظ خدم للمعاني حسبنا لأنها هي التي تجعلها تتشكل في قالب لغوي، ولا مزية للفظة إن كانت فارغة من أي مدلول.

ونراه في سياق آخر يعطي للفظة هبتها حين يقول «واعلم أن الداء الدوي والذي أعي أمره في هذا الباب غلط من قدم الشعر بمعناه، وأقل الاحتفال باللفظ، وجعل لا يعطيه من المزية إن هو أعطى إلا ما فضل عن المعنى يقول ما في اللفظ لولا المعنى وهل الكلام إلا بمعناه»[9]. وهو هنا يمجد اللفظ ويعطيه حقه وينصفه، بل يجعل إغفال حقه داء.

ونحن لا نرى تناقضا في ما قدمه الجرجاني لقضية اللفظ والمعنى، في زعم أولئك اللذين جعلوه تارة من أنصار اللفظ وتارة من أنصار المعنى، بل كان وسطا في مسلك هذه القضية، وجعل ينبه إلى شرف المعنى ويخاطب أولئك الذين جعلوا المزية في اللفظ، ثم يقدر قيمة اللفظ منبها أولئك الذين قدموا المعنى على اللفظ، ثم ألا ترى توافقا فيما قدمناه له من أقوال ينم عن رأي بين وواضح غير متخبط إلى جهة.

وانظر قوله لتعلم أنه قد جعل من اللفظ والمعنى تكاملا «وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش، فكما أنك ترى الرجل قد تهدى في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التخير والتدبر في أنفس الأصباغ وفي موقعها، ومقاديرها وكيفية مزجه لها وتزيينه إيها إلى ما لم يتهد إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب، وصورته أغرب، كذلك حال الشاعر والشاعر وفي توخيهما معاني النحو ووجوهه التي علمت أنها محصول النظم»[10].

فكانت الأصباغ هي المعاني، لكن لا يمكن ان ترى لتلك الأصباغ قيمة، إلا إذا أحس الشاعر العمل بها كي تتجلى للعيان في أحسن صورة وفي أبهى زينة، وهنا يتفاضل الكلام ويتمايز بين شاعر وآخر، لا لشيء إلا لأنه أحسن المزج بين الثنائيتين اللفظ والمعنى، ترتيب الألفاظ مع توخي معاني النحو.

- **من قضية اللفظ والمعنى إلى النظم :**

نقول إن عبد القاهر قد طور من فكرة النظم وتجددت معالمه حين نعلم «أن النظم قبل عبد القاهر الجرجاني لم يكن مقصود عن عمد، أو مدروسا بطريقة مباشرة، وإنما هو شيئ عفوي نابع من ملاحظات العلماء (...) أما عند عبد القاهر فهو عمل مدروس ومحور يدور حوله كتاب الدلائل كله»[11]. وفي استقراء هذا الكتاب تجده قد عج بأساليب شعرية اختلفت أغراضها ترددت في كل مسألة بيانية يبحث فيها الجرجاني،معللا بالدليل والحجة في إثبات رأي أو نفيه في تطرقه إلى أسباب حسن العبارة والتأليف والكيفية التي تتولد فيها الدلالة وتتعدد، وبذلك جاءت آراءه حاملة لطابع الجدة والطرافة مقارنة بالآراء التي سبقته من آراء علماء البلاغة في شأن النظم.

إذ يظهر مفهوم النظم عند الجاحظ في حديثه عن جودة النظم «وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا، وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان»[12].

وقد احتوى هذا القول العناصر الآتية:

_ تلاحم الأجزاء (كلمات+ جمل+ أبيات+ مقاطع)

أفرغت إفراغا واحدا وسبكت سبكا واحدا

_ سهولة المخارج (مخارج الحروف+ الكلمات)

يتقارب هذا المفهوم عند الجاحظ من مفهوم النظم، إذ النظم هو حسن تأليف العبارة، لكن الشروط التي قال بها الجاحظ هي في جمالية العبارة من ناحية أدبية صرفة.

ويظهر مفهوم النظم عند المبرد في قوله «حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام، وحسن النظم، حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ومعاضدة شكلها، وأن يقرب بها البعيد، ويحذف منها الفضول»[13] يتحقق النظم عند المبرد في حسن الجمع بين الثنائيتين اللفظ والمعنى.

وهو عند أبي هلال العسكري حسن التأليف مع مراعاة قواعد النحو «وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا حذفا لا يفسد الكلام، ولا يعمى المعنى، وتضم كل لفظة منها إلى شكلها، وتضاف إلى لفقها وسوء ف الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها، وصرفها عن وجوهها وتغيير صيغتها، ومخالفة الاستعمال في نظمها»[14]. ولو أن العسكري تعمق أكثر في مفهوم النظم ونظر لما قاله بأكثر من هذه الإشارة، لكان هذا الذي قال به لا يختلف عن ما جاء به الجرجاني، إذ أن أبا هلال قد كان واعيا لأهمية علم المعاني في تغيير دلالة الخطاب، حيث جمع في هذا القول بين حسن ضم الألفاظ بعضها إلى بعض مع مراعاة قواعد النحو من تقديم وتأخير وحذف وزيادة.

وهو عند الخطابي ارتبط بإعجاز القرآن «وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها»[15]. فقد تتعلق الأذن سماعا لآيات لمجرد ألفاظها وحتى وإن كان المعنى قد حجب على النفس، وترى المعنى يتطرق إلى القلب في بعض الآيات ويتدفق بقوة فلا تتردد في إعادة القراءة والتبصر مرات ومرات، ولا تعرف النفس تفسيرا لهذا التأثير اللغوي إلا برده إلى إعجاز القرآن في اللغة، لأنها لغة جمعت أرقى وأتم صورة للتعالق اللفظي والمعنوي.

إذن لا ريب أن النظم كان معروفا في مختلف بيئات الدراسات العربية الأدبية أو البلاغية أو النحوية، أو الدينية، فما الذي قدم عبد القاهر الجرجاني ليستحق لقب زعيم نظرية النظم؟

في البداية يعترف الجرجاني بأسبقية غيره في مضمار النظم «وقد علمت إطباق العلماء على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره والتنويه بذكره، وإجماعهم أن لا فضل مع عدمه ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم له»[16]. والجرجاني قد اغترف من كل علوم العربية وأضطلع على أدبها نحوها وبلاغتها ونقدها وكل ما تعلق بأمور الفقه والدين، وكان هذا أهم عامل في توقد فكره وذهنه ووضعه لنظرية النظم، أو بعبارة أخرى كانت نظرية النظم الجرجانية عصارة لآراء علماء من قبله فجاءت موزعة بين النحو والبلاغة والإعجاز ثم أستحدث لها الجرجاني منهجا فريدا قام على الدقة والتنظيم ودهاء الحجة وسلامة الذوق.

يقول الجرجاني «اعلم أن ليس النظم إلا ان تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها»[17].

وفي هذا القول ربط صريح النظم بقوانين النحو ومنهجه، وهو النحو في أدق وأعمق مفاهيمه إذ ليس هو العلم بحركات الإعراب كأن نقول حكم المبتدأ والخبر الرفع، أما إذا دخل عليهما إحدى النواسخ يتغير الحكم إما بالرفع أو النصب، لا ليس هذا ما قصده الجرجاني، فمعاني النحو هي هيئة مخصوصة في تركيبة الجملة، وإن ضمت نفس البنى الكلامية فقط بتغير وبتبدل في موضعها إما بتقديم أو تأخير أو زيادة يتولد عن هذه الهيئة الجديدة دلالة ليست هي الدلالة الأولى «وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك زيد منطلق وزيد ينطلق وينطلق زيد ومنطلق زيد وزيد المنطلق والمنطلق زيد وزيد هو المنطلق وزيد هو منطلق»[18]. وفي هذه الأمثلة فروق من حيث الدلالة توظف في المقام المناسب، فلكل عبارة حظها في

النظم والتأليف، لذلك أوجب على الناظم العلم بهذه الفروق والأخذ بها، فمتى كان هذا العلم كانت البلاغة أكمل وأتم، والحسن ظاهر والوقع أبين.

ويجمل الجرجاني حديثه عن هذه الفروقات في موضع الشرط والجزاء والصور المختلفة الذي تتولد منها العبارة الواحدة إن اختلف جوارها اللغوي، كذلك في الحال وفي الحروف والوصل والفصل ومختلف وجوه العدول في العبارة من تقديم وتأخير وحذف[19].

ثم نراه يتعمق أكثر في تحليلاته وهو ينظر لهذه النظرية، فلم يعط للفظة المفردة مزية إلا إذا أدخلت في سياق لغوي وكانت ملائمة في موقعها التي وضعت له، أي يشترط فيها مراعاة الجوار اللغوي من حيث المعنى «أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها (...) ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر»[20].

ومثل ذلك حين نقول: دخل زيد إلى المسجد

فهذه جملة تتكون من مجموعة من الألفاظ مستقيمة التركيب مؤدية لمعنى مفيد وواضح، فالفعل دخل على الفاعل وكان ملائما له، واتمم المعنى الذي تطلب فعل الدخول من قبل الفاعل بشبه جملة وضحت المقصد، وجعلت البنية التركيبة أكثر اتساقا ومحققة انسجاما دلاليا

ثم انظر حين نقول: إلى دخل المسجد زيدا

فلا ترى لهذه الجملة سوى أنها ألفاظ ضمت إلى بعضها البعض، فلم تحقق معنى ولا دلالة مطلوبة.

ثم يتدرج من اللفظة إلى الكلم «وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتبها في النفس»[21].

فجملة: دخل زيد إلى المسجد، كان لابد لهذه الجملة أن تقع في النفس أولا، أي التفكير في التركيب اللغوي السليم لهذا المعنى، ثم يأتي حيز إخراجها إلى الوجود بمجموعة من الألفاظ تشكل كلم.

- **النظم وعلم المعاني:**

إنك ترى الكلام يطول ويقصر وتتغير دلالته بمجرد دخول حرف في نسق الجملة، فعلم المعاني يعلمك قاعدة لكل مقام مقال، إذ المعنى الواحد يمكن تأديته بطرق مختلفة.

ويجمع الباحثون أن عبد القاهر الجرجاني هو واضع علم المعاني «رصد عبد القاهر كتابه دلائل الإعجاز لمباحث علم المعاني الذي أصبح أول علوم البلاغة الثلاثة، وإن كان عبد القاهر لم يطلق على هذه المباحث اسم المعاني على الرغم من أنه أرسى في كتابه كل أسس هذا العلم وبلور كل ملامحه ولم

يستطع أحد ممن جاء بعده أن يضيف إلى ما وضعه عبد القاهر شيئا ذا بال»[22]. «وسمى علم المعاني باسم النظم»[23].

فمسائل هذا العلم تجددت وجاءت مغايرة لما كان سائدا قبل الجرجاني، بل هو الذي جعل منه علما ونظرية حين تبلورت فكرة معاني النحو في كتابه الدلائل، ونحن نراه يرجع له الفضل والمزية في كل مرة «فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه»[24]. فالنظم أو معاني النحو هو مبحث علم المعاني الذي تفطن إليه الجرجاني وتمكن من بلورة نظرية متكاملة في جميع النواحي التركيبية للغة، واستطاع أن ينبه ما للغة العربية من قدرات في بنيتها تزيد من حكمتها وقوة إبداع هذا النسق اللغوي المختلف عن كل اللغات.

- **تطور مباحث علم البيان**

يعتبر كتاب أسرار البلاغة الذخيرة الحقة لعلم البيان «وضع أيضا نظرية البيان لأول مرة في تاريخ العربية وحقا إن كل الفصول التي بحثها سبقه إليها البلاغيون بالبحث، ولكنهم لم يحرروها ولم يبحثوا دقائقها على نحو ما بحثها وحررها عبد القاهر الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة وقد ميز أقسامها وفروعها وحلل أمثلتها تحليلا بارعا نحو أربعمائة صحيفة»[25]. وما قدمه الجرجاني لهذا المبحث عمل منهجي منظم، قائم على التحليل والتذوق، وجعل منه علما ناضجا مستقرا على صورة لم تعدها مصنفات القرون التي سبقته، ودون نظرية متكاملة استخلصها من زبد أشعار العرب، مستعينا بمن سبقه من أسس معرفية لعلماء سبقوه، لكن السبق يبقى له في خلاصة ما أودعه من آراء محكمة خاضعة للتقسيم والتصنيف والتمثيل القائم على الحجة والبرهان العقلي «والتحليل عمل يحتاج إلى نضج فكري، وتقدم معرفي للمشتغلين عليه، فالركيزة الأساسية التي يستند إليها وهي الاستدلال تحتاج إلى عقل يمتلك القدرة عل تفكيك الموضوع، وإعادة ربطه على وفق رؤية معينة»[26]. وهذا عمل وجد في الأسرار إذ لا يكتفي بالتعليق عن جودة الصورة الفنية، بل يعطي الحجة على حسنها أو قبحها. مع استرساله في تقسيم الصور البيانية ذاكرا نوعها ثم تقسيم النوع البياني الواحد، فالاستعارة تنطوي تحتها أنواع، كذلك في التشبيه، والكناية، بطريقة منظمة ممنهجة شأنه شأن رجل واع فطن يضع نظرية سيحسب لها حساب بعده.

**2_ ابن سنان الخفاجي (422هـ. 466هـ):**

جاءت آراؤه البلاغية في كتابه سر الفصاحة، «وهذا أثر من أنفس الآثار لأنه خلاصة مركزة لكثير من وجوه النظر في العربية وأصولها وفقه لغتها، ودراسة منظمة لعناصر الجمال الأدبي مع آراء سديدة

في النقد والبلاغة وفنون الأدب تدل تبحر وسعة اطلاع ورأي منظم وعمق التفكير البلاغي»[27]. وكان أهم ما تطرق إليه هذا المصنف الزوجين "الفصاحة والبلاغة" وعمل إلى استحداث رأي جديد له، أو نهج جديد خاص به.

عاش ابن سنان في القرن الخامس فقد توارث علم غير قليل من علوم العربية، وقد قلنا توارث لأنه «تعرض ابن سنان لأول مرة في الدراسات البلاغية لموضوع الأصوات ذلك أن موضوع بحثه في الفصاحة(...) اعتمد فيه على من تناوله من قبله من علماء اللغة والتجويد »[28]. إذ استطاع أن يتطرق لشيء جديد لم يمارس من قبل في بيئة الدرس البلاغي، وهو علم الأصوات الذي يهتم بمخارج الحروف وصفاتها وكيفية حدوثها انطلاقا من الجهاز الصوتي للإنسان وذلك يعني ربط مسائل البلاغة بالعلوم الأخرى وجاءت هذه الجدة والطرافة في قوله بالفرق بين الفصاحة والبلاغة.

والحق أن ابن سنان في دراسته هذه كان يرمي إلى شيئ محدد ودقيق ومنطقي لرجل يروم للوصول إلى سر الفصاحة، إذ أن الصوت الواحد هو حرف واحد وهو أصغر بنية في التركيب اللغوي، والصوت هو أول ما يتلقى ويحدث تأثيرا ما، ونتيجة لهذه الحادثة الفيزيولوجية تتشكل البنى اللسانية بين ما هو فصيح أو غير ذلك.

«وإذا كان الخفاجي يدرس الأدب فقد بدأ دراسته بالبحث في جزئيات هذا الأدب فقبل أن يتكلم في الصور الكلية تكلم في جزئيات هذه الصورة ومكوناتها، فالأدب عبارة وتركيب والعبارة تتكون من كلمات انضم بعضها إلى بعض، والكلمة تتكون من مقاطع، وكل مقطع منها متكون من أصوات»[29].

فذكر مخارج الحروف وصفاتها مقسما إياها على النحو الآتي:

الحروف التي مخرجها حلقي: ء، أ، هـ.

الحروف التي مخرجها وسط الحلق: ع، ح.

الحروف التي مخرجها مع أول الفم: غ،خ.

الحروف التي مخرجها من أقصى اللسان: ق.

الحروف التي مخرجها مقدمة الفم: ك.

الحروف التي مخرجها وسط اللسان بينه وبين الحنك الأعلى: ج، ش، ي.

الحروف التي مخرجها أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس: ض.

الحروف التي مخرجها من حافة اللسان من أدناها على منتهى طرفه بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى: ل.

الحروف التي مخرجها طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا: ن.

الحروف التي مخرجها بين طرف اللسان وأصول الثنايا: ر.

الحروف التي مخرجها بين الثنايا وطرف اللسان: ط، ت، د.

الحروف التي مخرجها طرف اللسان وأطراف الثنايا: ص، ز، س.

الحروف التي مخرجها باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا: ف.

الحروف التي مخرجها بين الشفتين: ب، م، و.

الحروف التي مخرجها الخياشيم: النون الخفيفة.

ثم أعطى لهذه الحروف صفاتها بين الجهر والمهموس والرخو وغيرها [30]

وفعلا قد وصل الخفاجي إلى ذكر فرق بين الفصاحة والبلاغي بعدما كانت مختلطة عند من سبقوه، حيث ان الأمير لمس وذكر فرقا واختلافا صار متداولا في الوسط البلاغي إلى يوم الناس هذا، «والفرق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني، لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة، وإن قيل فيها فصيحة، وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغا، كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه»[31] وهنا يظهر فضل علم الأصوات فبعد دراستها انتقل إلى دراسة الفصاحة والبلاغة.

**_ 3 السكاكي (555هـ . 626هـ):**

مثل أبو يعقوب السكاكي مرحلة جديدة في تاريخ التأليف البلاغي العربي، ونقلها من طور إلى طور وذلك بما دبجه في الفصل الثالث من كتابه مفتاح العلوم، وأصبح يمثل عند البعض ثاني المراحل التجديدية لهذا العلم بعد عبد القاهر الجرجاني[32].

إن ما قدمه السكاكي في هذا الكتاب يمثل حركة مغايرة لما كان عليه البلاغة، تجلت هذه الحركة في طريقة عرضه وتناوله للدرس البلاغي، التي غلب عليها روح عصره المنطقية والفلسفية، «وقد صاغ ذلك كله صياغة مضبوطة محكمة بقدرته المنطقية في التعليل والتجريد والتعريف والتقسيم والتفريع والتشعيب»[33] فجاءت جميع مسائل ومباحث البلاغة خالية وفارغة من معيار الجمال والتذوق الشخصي، التي كانت سائدة أيام الجرجاني ومن سبقه، محتكما فيها إلى صرامة علمية دقيقة مقننة، مخضعا البلاغة إلى منهج جديد وجعلها بغطاء جديد لا يشبه غطاء القرون الأولى، مستعينا في ذلك كله المنهج التقنيني المنطقي و «هو ذلك المنهج الذي يهتم بالقانون والقاعدة على حساب التذوق والتحليل الأدبي»[34]. وهو منهج طغى في بيئة السكاكي حين نعلم أن الفلسفة قد ذاع صيتها وأصبح تعتلي صفحات العلم والمعرفة السائدة في ذلك العصر وفي تلك البيئة.

- **السكاكي بين التجديد والتجميد**

هناك جدل كبير في ما قدمه السكاكي في كتابه، إذ يذهب البعض إلى اتهامه أن البلاغة العربية قد تجمدت على يديه، وأفل نجمها وانطفأ وصارت علما له حدود ومفاهيم لا تعطي الهوية الحقة لعلم قائم على الجمال والفنية والذوق الخالص.

وفيما يلي عرض لبعض الآراء الذي اتهموا بلاغة السكاكي، وجعلوه مجرد عالم عصر البلاغة من روحها وقتلها بكل هوان:

فالمراغي يعلق على التقسيم الذي أتى به قائلا «وهاك ما قاله في كتابه لتعلم منه كيف كان الداء دويا، وعلاجه مستعصيا لا يرجى له برء، ويعز منه الشفاء»[35]. ويقول علي عشري زايد «إذ لم تلبث أن انتكست في بداية القرن السابع الهجري على يد أبي يعقوب السكاكي صاحب كتاب مفتاح العلوم»[36]. ويقول بدوي طبانة «والواقع أنه لم يفسد البلاغة العربية أو البيان العربي مثل تمحيص السكاكي وتهذيبه وترتيبه»[37].

والسخط واللوم بارز في أقوال هؤلاء الباحثين، ومرد ذلك إلى مجموعة من الأسباب كانت موضع الاتفاق في الجزم أن البلاغة العربية جمدت مسائلها على يد أبي يعقوب السكاكي، ولعل ابرز هذه الأسباب هي:

_ المنهج المتبع في تناول مسائل البلاغة التي غلب عليها المنطق القائم على الحد والتقسيم والتفريع.
_ أسلوب خال من الجمال والذوق الفني وهذا ناتج عن السبب الاول.
_ نشأة جيل جديد لا يعرف للبلاغة معنى البلاغة سوى السير في نهج السكاكي.

أما الاتجاه الثاني فقد وقف وقفة الذكر بفضائل هذا الذي جاء به السكاكي، معتبرين إيه طفرة من طفرات إبداع العقلية العربية، ناهجين اتجاه معاكس للاتجاه الاول الذي في رأيهم ظلم للسكاكي.

يقول أحمد مطلوب «وإذا كان القدماء لم ينهجوا هذا النهج، ولم يبحثوا البلاغة بهذه الطريقة، فليس من الفساد في شيئ أن يأتي آخرون، ويبحثوا بطريقة تختلف عن منهج المتقدمين اختلافا جوهريا، (...) لان العقلية البشرية في تطور، ولان العلم في تقدم، ولئن كان ابن المعتز وأبو هلال العسكري وابن رشيق وابن سنان وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم من أساطين البلاغة قد ساروا علة منهج يختلف عن منهج السكاكي فليس معنى هذا أن عمل الأخير لا قيمة له، وان منهجه غير مستقيم»[38]. وهنا مكمن الجدة، أي الإتيان بشيء مغاير وإن كان الاتكاء على الأول، فلا يمكن لأي علم ان يتجدد دون إحداث انطلاقة نوعية لما هو موجود، والسكاكي انطلق مما هو موجود المصنفات البلاغية على اختلافها منذ القرن الثاني إلى عصره وعالجها بما هو موجود، الروح الفلسفية والمنطقية التي بانت في كتابه المفتاح.

يقول محمد عابد الجابري «إنه إذا كانت العلوم الفلسفية اليونانية قد بلغت منتهاها حينما دفع بها تطورها الذاتي إلى الكشف عن منطقها الداخلي مع أرسطو وعلى لسانه، فإن العلوم البيانية العربية قد كشفت هي الأخرى عن منطقها الداخلي مع السكاكي وعلى لسانه حينما دفع بها تطورها الذاتي إلى ذلك دفعا، لكونها بلغت منتهى ما يمن أن تبلغه على نفس الأسس التي قامت عليها أول الأمر»[39]. إن المنهج والكيفية التي جاءت بها البلاغة العربية هي حتمية في أي علم، فبعد أن أفاض العلماء الذين سبقوه بالذكر والاستقصاء والشرح والتحليل، والبسط لمختلف المفاهيم البيانية جاء السكاكي ليقنن هذه المفاهيم في إيطار ضيق قائم على منهج أقل ما يقال عنه أنه منهج علمي.

إن القول إن السكاكي قد افسد البلاغة العربية حسبنا هو تعصب لفترة علمية وعطاء سخي للعقلية العربية، وشوق للنفس العربي الخالص الذي يظهر في كل بيت شعري يزداد هذا الشغف ويعلوا أمام الطريقة التي قدم بها هذا البيت، فلما أراد السكاكي التوجه بالبلاغة نحو نظام جديد وإخضاعها لمنهجية تجمع بين العلمية والحتمية، عيب عليه واتهم ببعض الأباطيل، ونرى أن هذا الرجل ركن إلى مبدأ تنظيمي يساير ناموس الزمن، ودليل ذلك بقاء البلاغة العربية في هذا الحيز إلى يوم الناس هذا.

**4_ القزويني (661هـ. 739هـ):**

عاش القزويني في القرن السابع، واستطاع ان يخدم البلاغة العربية، وكانت نقطة انطلاقه من كتاب مفتاح العلوم للسكاكي، ووضع كتابين لهما صرحهما في الدرس البلاغي «وان تستوعب ملامح التجديد أيضا ومن باب أولى فيما جاءت به قريحة الخطيب القزويني من بعده [السكاكي] حين هذب كثيرا من بلاغة المفتاح وكان صنيعه هذا موضع إعجاب من جاءوا بعده من المتأخرين»[40]. فعمد إلى كتاب السكاكي ولخصه في كتاب سماه تلخيص المفتاح، استوعب جملة من المعايير والمقاييس التي من شانها أن نظمت فروع وأبواب هذا العلم أكثر تنظيما مما ورد في كتاب مفتاح العلوم «وقد حظي أحد هذه التلخيصات الكثيرة بشهرة واسعة فاقت شهرة مفتاح العلوم فعكف عليه الشراح والناظمون، وهذا التلخيص هو تلخيص المفتاح للخطيب القزويني»[41]. وأن يتطاول الدارسون على الكتاب الأول وما له من وزن في التأليف البلاغي، وينكبوا على ما جادت به قريحة القزويني يحسم بموضوعية كبيرة قيمة ما ضمه كتابيه.

وتتمثل أهمية الكتاب الأول تلخيص المفتاح في الكيفية التي أعاد فيها بسط المادة البلاغية التي احتواها كتاب مفتاح العلوم «فرتب كتابه ترتيبا أدق من ترتيب السكاكي»[42].

ثم ما لبث أن قدم شرحا على التلخيص لتعم الفائدة وليستقيم حال التلخيص أكثر، ولتزداد عليه القرائح كبا بعدما أحس صاحبه ببعض القصور سماه الإيضاح في علوم البلاغة واعتبره تداركا لما خلا منه التلخيص من ما تضمنه المفتاح من كلام الشيخين عبد القاهر الجرجاني، وأبو يعقوب السكاكي.

فالقزويني كانت له بصيرة بجملة من زبد التأليف البلاغي، فاستقصى ما يمكن استقصاؤه ونظر وجال حتى استوى على رأي وشخصية علمية بانت في مصنفيه إذ يتمثل في تقديم شروحات وتلخيص عن كتاب مفتاح العلوم، إلا أنه يتجاوز هذا ويقدم مادة بلاغية جديدة، خالف فيه رأي السكاكي يظهر هذا في باب المجاز العقلي، وخالف رأي الجرجاني في باب التقديم والتأخير[43].

**خلاصة:**

إن للبلاغة العربية نفس قارب السبع قرون نمت وتطورت وتجددت مباحثها ومسائلها شيئا فشيئا، فمن نظرية النظم الجرجانية التي تعد بحق زبد البحث البلاغي في القرن الخامس، يأتي ابن سنان الخفاجي ويعرج على مسألة جديدة ألحقها بهذا العلم وهو علم الأصوات التي تنبئ عن ملمح ذكاء الرجل، والتي حسبنا هي اقتباس من بلاغة القرآن وكيف لا وهو مكمن لعلم اسمه التجويد وللغة اسمها لغة الإعجاز، ثم يطالعنا السكاكي ومفتاحه أين اكتسبت البلاغة لهجة جديدة بعيدة عن الجمالية الفنية، وقوامها العقل والمنطق، ليأتي القزويني ويعمد إلى الكسر من علو هذه اللغة ويبسطها ويقللها في نظر الدارس.

وبعد هذا ألا ينبئ هذا عن شيئ اسمه عبقرية الفكر العربي! وبحر العربية التي نشأ في حضنها علم قارب السبع قرون من النضج والاكتمال. ثم ألا يضحد هذا من فكرة ان العقلية العربية عقلية جامدة غير متطورة بقت متمسكة ببلاغة تقليدية؟ ألا يُنفى هذا خاصة مع السكاكي والقز ويني!؟ ثم كيف يفسر العقل المعاصر عجزه عن تقديم بلاغة جديدة تفوق بلاغة هؤلاء العلماء؟ فليتقدموا وليأتوا بنظرية واحدة تعيش هذا الردح من الزمن إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

**الهوامش والاحالات:**

---

[1]. ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2003م، مادة (جدد)، ص 135، 136.

[2]. عثماني عمار: ملامح تجديد البلاغة في كتاب البلاغة العربية، قراءة أخرى لمحمد عبد المطلب، دكتورا، 2015، 2016، ص 94.

[3]. حمزة العلوي: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط01، 2002م، ج01، ص 06.

[4]. محمد محمد عبد العليم دسوقي: موروثنا البلاغي والأسلوبية الحديثة، دار اليسر، القاهرة، (د س)، (د ط)، ص 11.

[5]. عبد الغفار حامد محمد هلال: عبقري اللغويين أبو الفتح عثمان بن جني، دار الفكر العربي، القاهرة، ط01، 2006م، ج02، ص 788.

[6]. الجاحظ: الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط02، 1995م، ج03، ص 131، 132

[7]. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، مصر، ط03، 1992م، ص 415.

[8]. عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، (د ط)، (د س)، ص 08.

[9]. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 252.

[10]. المصدر نفسه، ص 87، 88..

[11]. عبد العاطي غريب علي علام: البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين عبد القاهر الجرجاني وابن سنان الخفاجي، دار الجيل، بيروت، ط01، 1993م، ص 65.

[12]. الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط07، 1998م، ج01، ص 67.

[13]. المبرد: البلاغة، تحقيق: رمضان عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط02، 1985م، ص 81.

[14]. أبو هلال العسكري: تحقيق: علي محمد البجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط01، 1952م، 161.

[15]. الخطابي: بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط03، (د س)، ص 27.

[16]. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 80.

[17]. المصدر نفسه، ص 81.

[18]. المصدر نفسه، ص 81.

[19]. المصدر نفسه، ص 81، 82.

[20]. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 46.

[21]. المصدر نفسه، ص 49.

[22]. علي عشري زايد: البلاغة العربية تاريخها مصادرها مناهجها، مكتبة الشباب، مصر، (د ط)، 1982م، ص 116.

[23]. شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط 09، (د س)، ص 161.

[24]. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 83.

---

[25]. شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص 191.

[26]. عماد محمد محمود البخيتاوي: مناهج البحث البلاغي عند العرب، دار الكتب العلمية، لبنان، ط 01، 2013م، ص 213

[27]. بدوي طبانة: البيان العربي، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، ط 03، 1958م، ص 94.

[28]. مازن المبارك: الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر، (د ب)، (د س)، ص 88.

[29]. بدوي طبانة: البيان العربي، ص 95، 96.

[30]. ينظر: ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، لبنان، (د ط)، 1972م، ص 29، 30.

[31]. عبد القادر حسين: المختصر في تاريخ البلاغة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (د ط)، 2001م، ص 249.

[32]. محمد محمد عبد العليم دسوقي: موروثنا البلاغي والأسلوبية الحديثة، ص 12.

[33]. عبد العزيز عتيق: علم البيان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (د ط)، 1985م، ص 30.

[34]. علي عشري زايد: البلاغة العربية تاريخها مصادرها مناهجها، ص 205.

[35]. أحمد مصطفى فالمراغي: تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط01، 1950م، ص 28.

[36].. علي عشري زايد: البلاغة العربية تاريخها مصادرها مناهجها، ص 140.

[37]. بدوي طبانة: البيان العربي، ص 195.

[38]. أحمد مطلوب: البلاغة عند السكاكي، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ط01، 1964، ص 125.

[39]. محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط01، 1986م، ص 90.

[40]. محمد محمد عبد العليم دسوقي: موروثنا البلاغي والأسلوبية الحديثة، ص 13.

[41]. أحمد مطلوب: البلاغة عند السكاكي، ص 346.

[42]. المرجع نفسه، ص 372.

[4343]. ينظر: الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، راجعه عماد بيسوني زغلول، مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان، ط 03، (دس)، ص 09.